في بيت عمتي

ما كدت أدخل غرفة الإستقبال في بيت عمتي حتى هتفت الضيفة وقد غمرها فرح مفاجئ:

-انها خير من تصلح لابني!

وابتسمت للمرأة النحيلة النافذة العينين وأنا أسلم عليها، والتفت الى عمتي:

-هل كنتما تتآمران علي؟

أدركت فيم كان الحاح عمتي عليّ للتعرف على ضيفتها.. راحت تغريني بقولها:

-ان فنجانها عظيم لا يخطئ أبدا، دعيها تفتح لك بالفنجان!..

ضحكت لحماس عمتي وايمانها العميق بفنجان صديقتها وقلت:

-وما حاجتي الى فنجان؟ انني أعرف مستقبلي وأعمل له..

كنت أريد أن أخلو الى نفسي وأحلم بالوجه الأسمر، وأستعيد في خيالي النظرة الحلوة والإبتسامة الفاتنة.. ولكنني ازاء إلحاحها لم أتمالك الاّ أن أجيبها الى طلبها وقلت في نفسي: لا بد أن مثل هؤلاء النسوة اللواتي يكسبن هذه الثقة هن على جانب كبير من الذكاء والفراسة واللباقة.. ولن يكون وقتي خسارة معها..

شربت فنجان القوة وقلبته ليجف، وراحت عمتي تصف من محاسني ما لا أتمتع به فقلت:

-ان عمتي تبالغ لترويج بضاعتها!

عجبت كيف تصنفني بالتدين، وطالما نعت علي سفوري وتقصيري في الطقوس.. وكيف تصفني بأنني "ست بيت ماهرة" وأنا لا أحسن قلي بيضة، وكيف تفخر بما كان لوالدي من ثراء عريض قبل أن نصبح لاجئين.. يعلم الله أن أيامنا كانت عسيرة ولقد ذقنا من عذاب الفاقة ما فغر في أكبادنا أعمق الجراح.. كانت لنا حينذاك ثروة من نوع آخر، ثروة من الآلام شدت قلوب واحدنا للآخر بالحب والتضحية والحماس والكفاح..

كانت عمتي تصفني بالصورة التي تتمناها لي، بمثلها الأعلى لما يجب أن تكون عليه الفتاة في رأيها، أو بما تخيلت أنه يروق صديقتها.. كل شيء الاّ أنا،

الاّ الصفات التي تميزني، والتي تتكون منها شخصيتي: موهبتي، ومشاعري والآمال التي تختلج في قلبي.. أما الضيفة أم عماد فلم يكن يهمها مني الاّ شكلي الخارجي وقالت:

-انني منذ أشهر وأنا أبحث لعماد عن فتاة شقراء! وأردفت وهي تتناول فنجاني:

-أمامك سفر بعيد، وستلتقين في نهايته بشاب أسمر..

وتملكتني روح الدعابة فقلت:

-يبدو أن ابنك أسمر اللون حتى يفضل الشقراوات.

وابتسمت الأم ابتسامة عريضة وهي تفتح حقيبتها وتخرج لي صورة ابنها:

-أسمر ولكنه وسيم وجذاب.. هل ترين؟ ومثقف، انتهى من دراسته الجامعية في أميركا.. لقد وعد الملك زوجي بتعيينه سفيرا..

وأردفت عمتي تزكي الشاب والإهتمام بالحوار يبدو جليا في وجهها:

-انني أعرفه منذ كان في الخامسة والذكاء يشع من عينيه.. ان مستقبله عظيم يا ابنة أخي..

وكنت قد سمعت من عمتي أن زوجها يعمل طبيبا خاصا للملك، وقلت وأنا أتأمل الصورة بإمعان لأستشف منها شخصية الشاب:

-يبدو لي صغير السن، فما عمره؟

-أربع وعشرون.

وأسرعت عمتي للقول وقد بان في وجهها القلق:

-ان ابنة أخي لا تتجاوز العشرين..

وابتسمت بغموض.. لماذا تصغر عمتي من عمري، ألا يفضح جواز سفري عمري؟ كنت في تلك الفترة أثق بنفسي الى درجة الإعتقاد بأنني لو بلغت الخمسين من عمري فسأجد من يحبني، ويتمنى الزواج بي.. وقلت وأنا أرد الصورة:

-انه شاب رائع، ولكن عيبه الوحيد أنه صغير السن، وأنا لا أرغب بالزواج الاّ بمن يكبرني عشرة أعوام على الأقل..

وأخذت الأم وعمتي تخطلان رأيي وتقنعاني أن مثل هذا الفـرق لا يجلـب السعادة للفتاة، فقلت عن تشبث وقناعة:

-انني أخشى عندما تتقارب بيننا السن أن أتفوق عليه..

كانت عمتي قد رفعت حاجبيها دهشة وأبقتهما في وضعهما، وفـي وجههـا المترهل الطيب كثير من الحيرة والقلق وخيبة الأمل، ولم تفهم أبدا كيف يكون هذا التعليل السخيف سببا في أن أضيع فرصة زواج من شاب تعتبره ممتازا لأربـط مصيري به.. أما الأم فان رفضي الرقيق جعلها أكثر تشبثا بي!..

-يجب أن تريه، ان شخصيته قوية، وله مستقبل لامع!

لم أكن أثق برأي الأمهات في أبنائهن، فليس هناك من أم لا ترى ابنها زينة الرجال أو تصفه بأنه أكمل الرجال..

وقالت عمتي:

-لو أن اقامة ابنة أخي هنا لأمكن تعارفهما، ولكنها مسافرة الى اللاذقية بعد انتهاء تصحيح الإمتحانات. فكما أخبرتك إنها مدرسـة للإنجليزيـة فـي ثانويـة اللاذقية.. قلت لعمتي:

-نحن لانتعارف، وانما ينظر أحدنا الى الآخر، والحرج والحذر والتكتم آخذة بأنفاسنا، وعندما نرغب بالتعارف، بعد أن نرضى عن المواصفات الخارجية، تفتح العيون لتنتقدنا والأفواه لتلسننا. احتدّت عمتي:

-في زماننا لم تكن الفتاة لترى زوجها الاّ ليلة العرس..

-وهل وضعنا أفضل؟ حقيقة أن جيلنا سافر، ولكننا محجبات رغم السفور.. لا نسير خطوة الا ومحرم يرافقنا.. آتي الى دمشق برفقة المعلمات ومعي أختـي الصغرى، ولكن أخي الأصغر مني سنا يرافقني! وحين نريـد الـزواج لانـزال نختارعن طريق الصورة والنظرة العابرة!..

وغشى وجه عمتي غمامة تعبر عن استيائها لتصرفي وحديثي، أما أم عماد، فكانت تبدو مفكرة، ولم تلبث أن أشرق وجهها بخاطر طرأعلى فكرها..

-هل تذهبين الى الرياض لو سعيت لك بعمل هناك؟

-ما نوع العمل؟

–تدرسين اللغة الإنجليزية لبنات الملك.. فزوجي طبيب خاص في القصر..

كنت واثقة أنني لن أدوس الرياض، فليس فيها ما يغريني الاّ أن أكسب المال لنشر روايتي وقصصي القصيرة التي تذاع لي.. ولكن لم يكن من طبعي أن أوصد بابا ربما أحتاج اليه، فقلت:

–على شرط أن لاتذكري الاّ أنني طالبة عمل!..

تحمست أم عماد وقالت بكثير من الحنان..

–أكتبي طلبك الآن وسأبعث به اليوم ضمن رسالة الى زوجي.. وشاع الرضى في وجه عمتي السمح وفكت من بين حاجبيها العقدة التي أحدثها تحديد ناظريها الي.. قالت تنصحني:

–لا تكتبي في الطلب أنك فلسطينية، أنت سورية وعليك أن تستردي جنسيتك! والتفتت الى أم عماد وقالت:

–ان ابنة أخي ذات كبرياء وأنفة.. جاءت قريبة فارس الخوري الى بيتي لتقنعها أن تسجل نفسها وعائلتها في وكالة غوث اللاجئين فرفضت، فلا هي تستفيد من كونها فلسطينية ولا من كونها سورية!

أعجبتني فكرة استرداد جنسيتي السورية.. ووعدتني عمتي أن تتصل بقريب لنا له نفوذ ماض في الجيش ليرافقني في دوائر الدولة لاستردادها.. ثم قامت تجرّ جسمها البدين خارج الغرفة فلقد ألهيت بالحديث عن تقديم القهوة لضيفتها، والتفتت أم عماد الي وقالت:

–هات ورقة وقلما واكتبي الطلب، فلن أدعك تفلتين من يدي..

وأذعنت لها ضاحكة..

* * *